

وصف عدن في القرن السادس عشر الميلادي فصل من (وصف الكون)

أندريه ثيفيت

ترجمة: د. عبد الغني الجاجي

قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب

والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء

تعريف بأندريه ثيفيت وكتابه وصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية)⁽¹⁾

أندريه ثيفيت هورحالة وكاتب فرنسي ولد عام 1516م في مدينة أنغوليم Angoulême الفرنسية وتوفي عام 1590م في مدينة باريس. وضع في سن العاشرة من عمره في مدرسة دير الفرنسيسكان في مدينة أنغوليم، إلا أنه لم يترك المدرسة بطلب منه إلا في عام 1558م. خلال هذه الفترة سافر إلى روما للإطلاع على الكثير من الكتب الدينية هناك، وظل تحت حماية ملك فرنسا فرانسوا الأول لفترة طويلة. قام برحلته الأولى إلى الشرق بين عامي 1549 - 1552م مساعداً للكاردينال جان دو لورين Jean de Lorraine، وزار كريت والقسطنطينية وفلسطين ومصر. وعند عودته إلى فرنسا نشر كتابه وصف الشرق والذي أهداه إلى فرانسوا الثالث دولا روشوفوكو François III de La Rochefoucauld⁽²⁾. ويرجع بعض النقاد أن هذا الكتاب إلى فرانسوا دو بيلفوريه François de Belleforest

(1) أندريه ثيفيت، وصف الكون، 3 مجلدات، المجلد 1، الكتاب 4، الفصل 12، باريس، غيوم شويديغ، 1575، ص

ص. 117-120. André Thévet, La Cosmographie universelle, Paris, Guillaume Chaudiere, 1575, 3 vol., t. 1, Liv. 4, Ch. 12, p. 117-120.

(2) فرانسوا الثالث دو لاروشوفوكو هو أمير بروتستانت لاروشوفوكو اغتيل في تاريخ 24 أغسطس 1572م خلال في مذبة سانت باغثليمي (Saint-Barthélemy) التي نفذها الكاثوليك ضد البروتستانت والتي تعتبر من الحروب الدينية.

Sébastien وهو أيضاً مترجم وصف للرحالة الألماني سياستين مونستير Münster من الألمانية إلى الفرنسية. لم ينتظر أندريه ثيفت كثيراً بعد عودته إلى فرنسا حتى شرع في رحلته الثانية كراهب بصحبة القائد نيكولا ديوغان فيلغانيو Nicolas Durand de Villegagnon في حملته لمحاولة احتلال البرازيل عام 1555م والتي خطط لها الأميرال جاسبار دو كولوني Gaspard de Coligny بأمر من الملك هنري الثاني Henri II. لكن الحالة الصحية لأندريه ثيفت لم تسمح له بالاستمرار في إقامته في البرازيل حيث حل به المرض منذ وصوله إليها، فرحل إلى فرنسا بعد ستة أسابيع فقط من وصوله إلى مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية. يقول أندريه ثيفت أنه قام بمرافقة قائد ميناء (هافر) Le Havre جويم لو تيسيو Guillaume Le Testu إلى البرازيل بين عامي 1549 - 1551م، إلا أن الكاتب يتناقض في مادته التاريخية لأنه خلال هذه الفترة كان في سفره للحج في القدس خلال رحلته الأولى إلى الشرق.

وكثيرة لرحلاته قام أندريه ثيفت بنشر العديد من المؤلفات من أهمها وصف الشرق (الكوسموغرافيا الشرقية) (1554)، وتاريخ رحلتين (1588)، وفرائد فرنسا القطبية الجنوبية (1557)، ووصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية) (1575) أو كما يسميها البعض كوسموغرافيا الملك، والتي قام بإهدائها إلى الأميرال دو كولوني وهو الكتاب الذي يحتوي على النص الذي اخترناه للترجمة. يتكون كتاب وصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية) من مجلدين، يحتوي على العديد من النصوص التي تتحدث عن الجزيرة العربية وموانئها ومدنها المزدهرة وحكامها وقلاعها والأشجار التي تنمو فيها والمدن التجارية والبضائع التي تتبادلها مع الشرق والغرب، كما تحدث عن طبائع العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطريقة معيشتهم. وتقع جميع النصوص الخاصة بالجزيرة العربية في المجلد الأول. ففي الفصل الحادي عشر من الكتاب الرابع في المجلد الأول يقع النص الأول عن العربية السعيدة ويحمل عنوان "جزيرة سقطرى، ونجد فيها شجرة الصبر وشجرة دم الأخوين، والحوار (صغير الجمل)".

وبلي هذا النص نص آخر في الفصل الثاني عشر من نفس الكتاب ونفس المجلد بعنوان "شبه جزيرة عدن، وملكها في زماني، وشجرة البخور" وهو النص المترجم هنا، ويحمل النص الثالث عنوان "جزيرة باب المنذب، والخليج العربي، والبحر المسمى بالبحر الأحمر" ويقع هذا النص في الفصل الأول من الكتاب الخامس في المجلد الأول من "وصف الكون". أما الفصل الثاني من الكتاب

الخامس في المجلد الأول فيحمل عنوان "أنواع مختلفة من الأسماك توجد في الخليج العربي"⁽³⁾، كما يتحدث هذا الكتاب عن العديد من الجزر في البحر الأحمر والمدن الواقعة على ضفافه. وكون مؤلف هذا الكتاب راهب مسيحي فقد خصص ثلاثة فصول⁽⁴⁾ يتحدث فيها عن الإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم وقوته - حسب وصفه - التي ساعدت في انتشار الإسلام في مختلف أرجاء الأرض⁽⁵⁾ وما يحتويه القرآن من قصص خيالية وغير واقعية بنظره. وقد ضمن كتابه العديد من الصور الخاصة بالمناطق والأشخاص والحيوانات والنباتات حيث نجد من ضمنها صورة لطريقة استخراج اليمانيين للبخور من الأشجار وصورة أخرى للجمل في جزيرة سقطرى.

لقد وقع اختيارنا للنص الخاص بمدينة عدن وذلك لما يحتويه هذا النص من معلومات مهمة دونها هذا الكاتب سواء من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو السياسية؛ حيث عرف القرن السادس عشر الأوروبي بعصر الاكتشافات وكان حينها البرتغاليون قد وصلوا إلى شواطئ جنوب شرق الجزيرة العربية. وقد شكلت هذه الرحلات الاستكشافية العامل الأهم للتزود بالمعلومات حول تلك الشعوب والتي سمحت بشروع الغرب في إرسال حملاته الاستعمارية. وكانت عدن تشكل منطقة إستراتيجية لموقعها الجغرافي الذي يربط بين الهند وجزر المحيط الهندي في الشرق وأوروبا في الغرب. وإن كان الرحالة قد مر على الكثير من الجزر والموانئ على البحر العربي والبحر الأحمر إلا أن إعطائه أهمية كبيرة لمدينة عدن وإعطاء تفاصيل عن مكانتها التجارية وموقعها العسكري وطريقة تحصنها ومدخلها وارتباطها بالرقعة اليابسة وذكر قصة الاستيلاء عليها من قبل الأتراك بسهولة يبرر اختيارنا لما يوحى إلى أي درجة كان يهدف هذا الكاتب في وصفه لهذه المدينة، وهذا ما دفعنا لاختيار ترجمة هذا النص دون غيره. إلا أن طموحنا في المستقبل هو أن يتم ترجمة جميع النصوص التي خصصها أندريه ثيفت عن اليمن في كتابه وصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية).

يقع هذا النص كما ذكرنا سلفاً في الفصل الثاني عشر من الكتاب الرابع في المجلد الأول، ويتكون من 6 صفحات من القطع الكبير مرقمة بطريقة خاصة حيث تحمل كل صفحتين رقماً واحداً فقط، ويبدأ النص من صفحة 117

(3) يقصد به البحر الأحمر - (المترجم).

(4) الفصل الثالث والرابع والخامس من الكتاب الرابع في المجلد الثاني.

(5) انظر الفصل الثالث من الكتاب السادس، المجلد الثاني من كتاب وصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية) لأندريه ثيفت (1575).

(الصفحة الثانية) حتى صفحة 120 (الصفحة الأولى). وبما أن هذا النص يعود إلى القرن السادس عشر فإن اللغة التي كُتِب بها هي اللغة الفرنسية القديمة وهو ما شكل أمامنا أحياناً شيئاً من الصعوبة في فهم بعض المصطلحات والعبارات. وهو ما دفعنا إلى الاستعانة ببعض المراجع الندية المعاصرة لهذا الكتاب. هناك بعض أسماء المناطق التي لم نتمكن من تحديدها حالياً ولذا فقد اضطررنا أن نكتبها كما وردت.

النص: المجلد الأول، الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر

شبه جزيرة عدن، وملكها في زماني، وشجرة البخور⁽⁶⁾

بما أنني أذكر باستمرار كلمات الأرض المغلقة، وجزيرة، وشبه جزيرة، وخليج، وكلمات أخرى مشابهة، فإني لا أريد أن أنسى، حسب الأماكن والمواضع المتعلقة، أن أختصر لكم وأوضح المستخدم من الأسماء. كل الطوق من ناحية الأرض وأطرافها تبدوا تماماً كجزيرة محاطة بالبحر: أعرف بأنه بسبب كبرها، تسمى قارة، أي أرض مغلقة، وهذا هو الفرق أن الجزيرة منفصلة عن ما هو في القارة بهذا الجزء الكبير من الأرض المغلقة. أما بالنسبة لما نسميه بشبه الجزيرة، فهي أرض، أكثر اتصالاً بالقارة، يلاطمها ويفسلها البحر من كل اتجاه ما عدا الناحية المتصلة بالقارة: كإيطاليا مثلاً، محاطة كاملاً بالبحر، ما عدا من اتجاه جبال الألب. وفي اليونان، هذه المنطقة التي كانت تسمى سابقاً بالـ (أشاي) Achaie والـ (موري) Morée، وفي بحر الشمال بلد الدنمرك محاطة بالبحر الألماني والبحر المسمى بـ (الغوطي) Gothique، وفي الأراضي المكتشفة حديثاً والمسماة بالهند رأس فلوريدا ومملكة (يوخاتي) Yucathay، وعلى ساحل العربية السعيدة مدينة عدن والتي أمل أن أعرفكم عليها وهي تشكل شبه جزيرة جميلة وقوية كالأرض التي بنيت عليها، وكم هي مشهورة في آسيا. تبعد عن سقطرى مائة وواحد وثلاثين فرسخ، تقع بدرجة ثلاثة عشر على خط العرض، وثلاثة وثلاثين على خط الطول، ممتدة من الشمال إلى الجنوب وتطل على مملكة عادوليس⁽⁷⁾ الواقعة في أثيوبيا والتي تقابلها من ناحية المضيق مدينة زيلع، وهي ميناء لتلك البلاد.

(6) هذا النص مقتطف من الكسوغرافية الكونية لأندريه ثيفت، المجلد الأول، الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر، وصفحات هذا الكتاب مرقمة بطريقة خاصة حيث يعطى رقم واحد لكل صفحتين ويبدأ هذا النص في الصفحة رقم 117 الأولى وينتهي في الصفحة رقم 120 الأولى.

(7) مملكة عادوليس هي إريتريا حالياً (المترجم).

أما هذه المدينة (عدن) فهي ميناء العربية وبوابة الإبحار إلى مكة. ولهذا فكل السفن التي تغادر إلى مكة لابد أن تمر بها، سواء الآتية من الهند الكبرى أو الصغرى، أو شقت رحلتها من أثيوبيا أو من بلاد فارس. إذا فعدن هي الميناء الرئيسي، وتعتبر كالمسلم للصعود من أثيوبيا إلى بلاد العرب، ذات مساحة جميلة وكبيرة وهي برأبي الأكثر نبلاً وغناً وقوةً وجمالاً حسب المظهر الخارجي الذي لم أر مثله قط من قبل.

وفيما يخص موقعها، فهي رائعة ومزودة طبيعياً بما لا يمكن أن تشاهده دون ما تبodon اندهاشا كبيراً، فالمباني فيها جميلة وجيدة التشييد، وذات أحجار قوية ومواد جيدة. ولأقل لكم الحقيقة، فإني قد ذهلت من خوف جنود ملك عدن، الذي كان حينها موري (أي عربي مسلم) أبيض والذي نزع من بين يديه قلعة بتلك الضخامة. تأكدت أنه يوجد بها حامية من خيرة الناس بحيث أن قوة الملوك والسلاطين الشرقيين حتى أولئك الذين تغذيههم المسيحية اليوم لا تكفي لامتلاك مدينة بهذه القوة. ولكن كي يتخيلها بدقة كل من يهتمون بخرائط المدن، ويفرقون بين الأماكن غير المنيعة، والأماكن التي يمكن الاستيلاء عليها بسهولة. سأوضح لكم بأنها وطيدة وسأطرح لكم الأسباب التي تجعلها بهذه القوة وتستحق أن يكتب عنها. من جانب العربية السعيدة، في قارة آسيا، والمتصلة بها مملكة عدن باتجاه الشمال، يقع جبل في وسط سهل كبير وجميل يمتد لمسافة فرسخين إلى الأمام نحو البحر الذي يحيط بها شبه كلي لدرجة أنه يبدو وكأنها جزيرة حقيقية. هذا الجبل مرتفع جداً لدرجة أن من يشاهده يتخيل أنه من المستحيل إمكانية صعوده. وفي بدايته باتجاه الشرق يبد ميناء جيد وآمن، يمتد نحو سهل أجمل ما يمكن أن يتمناه المرء، محصنة بسورين منيعين بشكل أجنحة تبدأ في وسط ذلك الجبل وتنحدر حتى البحر بحيث تقدر المسافة بين السورين بحوالي نصف فرسخ. وفي هذا السهل تم تشييد مدينة عدن، كنصف دائرة محاطة بجبلين من الجانب الذي لا يوجد فيه أسوار، ويوجد في الجانب الآخر قلعة واسعة تبدأ من بداية أصغر جبل وتعبر في وسط السهل حتى قاع الجبل الآخر، مع سور يمتد قطعياً، ويوجد في نهايته طريق كبير محاط الجوانب للدفاع عن أسوار القلعة ضد أي عدو. وكم لهذا السور الممتد أن يراقب السهل صعب الحراسة، وكم أن المواد سهلة التدمير. فالأبراج التي تحمي وتحمي قصرين كبيرين ومحصنين، يحتضنان هذه القلعة من جناح إلى آخر، ويمكنهم أن يفاجئون أكبر قوة في حالة الاقتراب من القلعة، ويسكن فيها كل من يمتلك

سرعة كبيرة للصعود. ولكن يجب أن ندون أيضاً أنه عندما أرادت الفطرة البشرية تحصين هذا المكان فإنه كان يتمتع مسبقاً بتحصين طبيعي، لأنه إذا أردنا أن نصل إليه من هذه الأرض المغلقة يجب الدخول من الباب الرئيسي للمدينة، وإلى جانب هذين القصرين اللذين يحرسان هذا الصرح تجد نفسك بالصدفة أمام مضيق يمر بين جبلين قبل الوصول إلى المدينة. وعبر هذا المضيق يمكن لعدد بسيط من الرجال مقاومة جيش كبير، ولا يمكن نصب مدفعية أو تزويد الجبهة بالمؤن. وهذا يذكرني بموقع مدينة أنتيفار⁽⁸⁾ Antivari، وهي مدينة تقع بالقرب من جبلي كوالو Causallo وسورين Seren على مشارف دالماتي⁽⁹⁾ Dalmatie وألبانيا Albanie، كي أعطي مثالا لقوات الأعداء والجيش التركي.

أما بالنسبة للجبهات الأخرى، ففي الاتجاه الغربي فإن الوعورة والارتفاعات الشاهقة للجبل تشكل حصناً للمدينة. ومع ذلك يوجد في سفح هذا الجبل من عشرين إلى خمسة وعشرين قصراً، كتحف رائعة، تطل على كامل المدخل البحري والأرض المستوية الممتدة من الجزيرة العربية. وهذه القصور معدة بنظام بحيث إذا تمرد سكان المدينة، فبإمكان المتواجدين في الأعلى أن يسحقوهم بأحجار كبيرة. ولهذا فإن هذه الحصون تستخدم كقلعة كي يقوم الناس بواجباتهم. وعلى ساحل البحر يمكن أيضاً مشاهدة شيء كزينة للمكان وأمن للميناء، وهي صخرة مرتفعة مزودة ومحصنة بأربعة أبراج كبيرة تقوم إلى جانب سلاح المدفعية بالدفاع عن الشاطئ وسور المدينة. وهذا هو الميناء الذي نرسي فيه السفن بكل أمان، وبعيداً عن خطر أي عاصفة أو إعصار هوائي.

وأكبر إزعاج هو نقص الماء العذب، وهذا ما يعاني منه الآخرين سواء في بلاد العرب أو في إثيوبيا على قريها من البحر، بسبب ندرة المطر في الغالب لدرجة أن من يريد الماء العذب يجب أن يذهب للبحث عنه لمسافة تبعد عن المدينة بأكثر من أربعة فراسخ باتجاه الأرض المغلقة. وهناك أيضاً آبار تحفر في الأرض لأنه لا يوجد أي منابع، كما أن الأنهار الجارية قليلة. منذ زمن قريب وبعد أن تم تحصين المدينة كما وصفتها لكم وجدوا طريقة لتوصيل الماء بواسطة قنوات من جبل بعيد حتى المدينة.

(8) مدينة تقع في ألبانيا - (المترجم).

(9) دالماتي هي منطقة ساحلية في كرواتيا على ساحل البحر الادرياتيكي - (المترجم).

إذا فعدن تعتبر مستودعاً لأثيوبيا وبلاد فارس لأن يمر عبرها التجار من المشرق، الذين يأتون من حلب ودمشق ويبيعون بضائعهم للأحباش. ويجب القول هنا أن البرتغاليين يمنعون مرور التجارة من هذا الجانب، إذا كان التجار أنفسهم لم يتجهوا وجهة أخرى، ويمرون بالطريق المؤدية إلى كلكتا، لأن الأتراك لا يهتمهم أبداً أن البلد التي يعتبرونها مقدسة بسبب نبهم تقع تحت إدارة وسيطرة الآخرين من غير طائفهم.

ولكن عدن أصبحت تمنح الطاعة للبasha العظيم، وكانت في السابق تابعة للملك الأمة العربية وستسمعون به بإيجاز في النص الذي يلي. في عام 1537م، قام الإمبراطور الأعظم للترك السلطان سليمان⁽¹⁰⁾ بإرسال البasha سليمان ساش، مخصي، إلى بلاد العرب ولم يسبق له أن حكم من قبل كي يقوم بطرد البرتغاليين منها وكانوا قد شيدوا بعض الجزر في البلدان المجاورة. وعند وصوله إلى جزيرة عدن على الميناء الذي وصفته، قام بإرسال اثنين من اليهود كانا قد أتيا له حاملين من الأطعمة للقوات في الأرض المغلقة، فكلفهم بالقول للملك السلطان يوسف (والذي يعني باللغة العربية الملك يوسف) أن يأتي مشياً ليثبت ولاءه، وأنه لن يؤذيه ولن يسبب له أي إزعاج. لكن الملك العربي المذكور سابقاً اعتذر ووافق أن يزوده بالأغذية وكل شيء يلزم للجيش من بلده. حينها قام البasha، وهو الرجل الأكثر قوة وفضالة في العالم، بإنزال الجنود المسلحين على الأرض واستولى على الميناء. عندئذ أرسل رسوله (شاكايا) Chaccaia كمنتصر إلى الملك العدني لينذره أن يأتي إليه، لطاعة السلطان الأعظم والذي كان هو ضابط تحت إمرته. أنذهل الملك المسكين من تلك القوة وأجاب بأنه عبد وخادم خاضع للسلطان الأعظم.

وبعد أن طمأنه الرسول بكلامه ذهب بنفسه ليتحدث إلى البasha، وكان برفقته كبار الشيوخ والعلماء في ساحته. وعندما وصل أمام ذلك المتعجرف المخصي، لم يتم فقط حسن استقباله بل أيضاً تخاطب معه بصيغة المفرد ويلطف، وتم تبادل التعهدات بالتحالف، وأعطى له التركي بعض الأموال والهدايا من الأرواب وأوعية من الذهب ستفيدة في حالة إفلاسه. وبقدر ما كان متعباً أثناء خروجه، كان فرحاً عند عودته ليدخل على مدينته، فقبض عليه

(10) هو السلطان سليمان القانوني - (المترجم).

بعض الجنود الأتراك وعلى الحال وبدون أي إجراء علقوه وشنقوه على ساريات وحبال سفنهم، وفعلوا نفس الشيء بالشيوخ وجلسائه الذين رافقوه. وبعد هذه الخطوة ركض الجنود نحو كنوزه ووضعوا أنفسهم أسياداً على المدينة تحت مسؤولية (سانجك) Sangeac الذي تركه الباشا مع خمس أو ست مائة رجل للحراسة مع المدفعية والذخائر.

كما قام هذا التركي البشع بمعاملة ملك زبيد بنفس البشاعة مع ستين مسيحياً كان قد وعدهم وعهد لهم بتسريحهم وإعطائهم الحرية. ولكن هذا الإفراج كان يقصد به تخليص الفكر من أسر المآسي في هذا العالم. هل هذا عمل كريم وشريف من شخص كهذا؟ لاحظوا من فضلكم، إذا الملوك والأمراء المسيحيين يثقون بطغاة بشعين كهذا، فأعلموا أي وفاء سيقوم (الملوك الأتراك) نحو المسيحيين لو كان الأتراك هم من يسيطرون، وذلك بسبب الإنسانية التي مارسوها في حق الكثير من الملوك والسادة، حتى بحق أولادهم المقربين اللذين يتبعون دينهم البغيض. كي أوضح معاملة محمد الثاني للإمبراطور المسيحي، بعد أمير القسطنطينية وأمير ترييسوند ونسائهم وأولادهم وكل من هم من دمهم أمر عليهم أن يمروا على شفرة السيف دون أن يترك منهم أحداً. بهذه الطريقة قام سليم بقتل سلطان مصر بحقارة منذ ثمانية وخمسون عاماً قبل هذا، وكثير من الملوك والأمراء سواءً من آسيا أو من أفريقيا أو من أوروبا.

عندما كنت في العربية السعيدة كان بعض التجار من اليهود والعرب يروون لبعضهم البعض ويتحدثون عن موت الملك السابق الذكر يوسف كون الحادثة مازالت حديثة العهد، وما زالت الذاكرة منتعشة. كانوا يقولون بأنه قد شوهد هذا الموت في مدخل البحر الأحمر قبل أربعة أشهر من حدوثه، حيث تجمعت أعداد مهولة من الحوت وأسماك أخرى ضخمة جداً خلال ثمانية أيام كاملة حول شبه هذه الجزيرة (عدن)، وهو ما لم يشاهد قط من قبل. ويضيف عربي طاعن في السن، بأنه حضر رجل كبير السن قصير القامة أمام رجال الدين المحمديين (أي مسلمين) عند خروجهم من المسجد بعد أن أدوا صلاتهم، وقال لهم بصوت عال أمام الحضور أن هذا نذير شؤم على موت ملكهم أو أمير آخر في البلد.

ثروات هذا الملك لا تقدر بثمن اغتنى بها التركي، لأن هذه المدينة هي أكبر مدينة تجارية معروفة بتجارة مختلف التوابل والطيب التي يشتريها

مسيحيو الهند كالبخور والمر التي تنمو أشجارها في هذه المنطقة. فالبخور هو شجرة تشبه الصنوبر التي تحمل الصمغ، لكن قليل من الناس هم من يقولون بأنهم قد رأوا هذه الشجرة التي يعتبرونها مبدلة ومقدسة والتي تنتج هذا السائل الذي يتصلب فيما بعد والذي نسميه البخور. وهذه الشجرة لها بعض الحبوب الصغيرة تشبه الحصى أو الرمل يسمى (مان) Manne. جزر كثيرة تنبت فيها هذه الشجرة وهو عكس ما قاله مونستير⁽¹¹⁾ Sébastien Münster حيث قال بأنه لا يوجد إلا في بلاد العرب فقط وهو ما لا يمكن أن نصدق. وما أفقه في الرأي هو أنه لا يوجد سوى ثلاث مائة أسرة قوية أب عن جد تقوم باستخراج البخور وقطعه والمتاجرة به، والشيء السيئ فيه هو أن هذه الأشجار مشتركة للأسر التي تملكها وترثها كحالة البرتقال في إقليم البروفانس Provence [جنوب فرنسا]. لا أنكر أن البخور في العربية، الذي ينمو في (بيشار) Pecher [ربما الشحر] وفرتك وهي مدن تابعة لمملكة عدن، له شهرة قديمة كما هي سمعته اليوم بسبب جودته. كان الذين يجنوه يتشاءمون جداً فيصومون ويمتنعون عن الذهاب إلى نسائهم كما يفعل الذين يذهبون في الليل إلى القديس جون لقطف حبة السرخس. فهم لا يذهبون أيضاً إلى جنازات الموتى خوفاً أن يتنجسوا خلال هذا الوقت فيظل متخفي عن الحاضرين. يوجد نوعين من البخور، الأول يقطف من الشرق عندما تكون الشمس عند علامة الكلب والتي نسميها بالأيام شديدة الحرارة، وهو يميل إلى البياض وشفاف وصافي جداً.

أما النوع الآخر فيقطف خلال الربيع وهو أحمر وليس له أي علاقة مع جمال وقيمة ووزن وأفضلية النوع الأول، وهو ما أكد لي بأن أيام الحرارة هي الأنسب لجمعه لأنه ينضج لحاء شجرته. ويستخدم كثيراً لدى المحمديين (أي المسلمين)، ولهذا يوجد لديهم مباخر كبيرة، وأدوات الطيب في المدن والبيوت. بالإضافة إلى ذلك يعتبره مسيحيي الهند أغلى من الذهب ويشترونه بأي ثمن، ويكسب منه تجار عدن ربحاً مؤكداً. يقوم العرب بتشقيق الشجرة بضربات سكين كي يستخرجون منه ما يسمى بالنسغ أو السائل الذي يسمونه بلغتهم البخور،

(11) هو كاتب ألماني يدعى سيباستيان مونستير، له كتاب يحمل نفس العنوان وصف الكون (الكوسموغرافيا الكونية) ترجمها إلى الفرنسية فرانسوا دو بلغوريه وتتألف من ثلاثة مجلدات ونشرها في باريس، في دار نشر ميشيل سونيوس عام 1575. وقد خصص ضمن هذه الكوسموغرافيا في المجلد الأول بعض الصفحات عن بلاد العرب والتي قسمها إلى عربية البتراء، وعربية الصحراء والعربية السعيدة - (المترجم).

وبعض هذه الأشجار يمكن أن يكون مردودها في كل عام أكثر من ستين جنية. أردت أن أرسم لكم هذه الشجرة بالشكل الطبيعي الممكن مع الطريقة التي يستخدمها الرجال في استخراج البخور من أجل أن أنال على رضاكم بدلاً من القيام بالرحلات التي قمت بها. كما تنمو أيضاً في بعض الأماكن شجرة المر، وهي شجرة شوكية في بعض الأماكن، وارتفاعها من خمسة إلى ستة باع، وهي صلبة وملتوية وأغلظ من شجرة البخور، وقشرتها ملساء ومصقولة كقشرة شجرة إكليل الغار laurier، وأوراقها تشبه أوراق شجرة الزيتون إلا أنها قاسية ولها بعض الشوك الحاد في الأطراف على طريقة وشكل الشجرة المسماة بالمتوحشة. وما يستخدم في الطب هو ذلك السائل الصمغي الذي ينهمل كدموع لحاء هذه الشجرة ذات اللون الأخضر الشفاف والطعم اللاذع بمرارته إلى درجة أنه لا يمكن الاعتقاد بأن هذا هو المر الحقيقي. ومن الصعب جداً أن نجد في الإسكندرية مُر غير مصطنع، كما أن أولئك الظرفاء الذين يبيعونه يفتعلون آلاف الخدع ويستعزّون بالمسيحيين الذين يتعاملون بالتجارة معهم ويستعزّون بفضول هؤلاء التجار.

كما تلاحظون أن كل المر الذي يبيعه تجارنا والعطارة بالرغم من أنه يجب أن يكون زمردى اللونى ودهنى وصمغى، إلا أنه جاف ومسطح ومحروق وأسود وشاحب يمكن تفتيته بسهولة. إذا تذوقتموه لن تشعروا أبداً بهذه المرارة اللاذعة التي تميز المر الحقيقي. أما بالنسبة بما قاله بليني وأندريه ماتيهيول فلا اقتنع به لأنهم قالوا بأن المسلمين السبئيين⁽¹²⁾ يذهبون للبحث عن المر الحقيقي في بلاد سكان المغاور⁽¹³⁾ Troglodytes ويجلبوه عن طريق البحر إلى بلادهم. وهذه المعلومة التي حصلوا عليها تعتبر معلومة خاطئة.

وإذا كان من المفترض أن تلك المنطقة (بلد سكان المغاور) هي البلد التي سكنها القدماء والمعاصرون فهذا يعني أنهم يعبرون على الأقل من ألف إلى ألف ومائتين فرسخ بين هذه البلاد وتلك. وكل من رأى أو زار هذه البلدان مثلي

(12) المقصود بهم أحفاد السبئيين بعد ظهور الإسلام - (المترجم).

(13) معظم البحوث وروايات الرحالة الغربيين تحدد بأن منطقة المغاور توجد في الساحل الغربي للبحر الأحمر، ويذكر بيري دافيتي في كتابه وصف عام لأفريقيا (1637) أن سكان المغاور أو الكهوف يعيشون في جزيرة مصوع في القرن الأفريقي، أما الرحالة الإنجليزي جيمس بروس فقد ذكر في كتابه رحلة إلى منابع النيل (1790) الجزء الثاني أن سكان المغاور يعيشون في الساحل الغربي للبحر الأحمر وبالتحديد في المناطق المرتفعة من أرض الحبشة - (المترجم).

سيحكم إذا كان العرب يقومون برحلات طويلة كهذه أم لا. ومن ناحية أخرى هناك شيء مؤكد وهو أن أكثر العرب غنى قد لا يعرف كيفية تجهيز سفينة على البحر بما يحتاجه خلال الرحلة للوصول إلى بلد ما يسمى بسكان المغاور التي نعتقد أنها توجد بين مملكة سفالة⁽¹⁴⁾ وصحراء البنكال في أعلى منطقة رأس الرجاء الصالح، وهي بلد باردة وخطرة في السفر بسبب فظاظة شعبها. كما أن (ماتيهول) المذكور سابقاً قد أخطأ هنا خطأ أكبر حيث يعتقد أنه في المناطق الباردة والرطوبة يمكن للمر الجيد أن يكتسب جودته الكاملة. كما أن الخطأ أيضاً عندما يقول أن الشجرتين التين يستخرج منهما البخور والمر لا يمكن أبداً أن يجتمعان في نفس المكان، ولا يمكن أن تمطر السماء ثلجاً في المكان الذي تنبتا فيه. لكنني سأجيب على ذلك بأنه بالعكس تماماً، فإني قد رأيت في نفس المكان تنمو أكثر من ألفي شجرة مختلطة مع بعضها البعض. كما أن قوله عن المر الذي يجلبه العرب إلى ساحل البحر الأحمر ثم يسيرونه على ظهور الجمال إلى القاهرة الكبرى أو الإسكندرية في مصر من أنه يأتي من الهند فهذا أيضاً كلام خاطئ كالقول السابق، لأن الهنود وسكان الجزر الآسيوية أنفسهم يشحنوه من العربية السعيدة.

لكن يجب الآن أن أعود إلى حديثي السابق لأقول أن سكان عدن كبقية العرب ذوي قامات إلى حد ما طويلة، ولكن جميعهم نحيلين وأولادهم شريرين. وهذه المملكة قاومت سابقاً لفترة طويلة سلطان مصر. والرأي الوحيد حول قوة الأتراك هو أنهم هزموا المماليك بسهولة، والسبب هو أن هذا الشعب يخضع له، كما نلاحظ ذلك في هزائم الملوك السابقين. وبعد المرور بشبه الجزيرة تلك، القوية والغنية، نأتي إلى مضيق الخليج الواقع بين مدينة عدن ومدينة زيلع في أثيوبيا. وفي هذا المضيق على القارة الممتدة من الشرق إلى الغرب يوجد القصر المسمى بمكة وهي الطريق المستقيم الممتدة من الجنوب إلى الشمال باتجاه مكة الكبرى، وهو مكان عبادة الأتراك والمحمديين من كل بلدان العالم. ومن هنا نبحر بمحاذاة بلاد العرب، وسط رياح هادئة، وتظهر من الناحية اليمنى مدينة بين رأسين صغيرين ويسمياها العرب جدة، ويأتي هذا الاسم من ملك البلاد الذي شيد الصرح الكبير المسمى لدى المحمديين مكة والذي نمسه نحن مسجد مكة، والمسافة الفاصلة بينهما فقط اثني عشر فرسخاً. الميناء جميل وواسع ومعد على شكل هلال. وكم هو مزعج الدخول إليه عندما تهب الرياح من الجنوب أو الجنوب الشرقي فتمر من كل مكان في منحدرات الشواطئ المجاورة. ستندهشون

(14) مملكة سفالة هي بلد الموزنبق حالياً- (المترجم).

عند معرفة عدد السفن والبواخر التي ترسي في هذا المكان، كونه حالياً أحد أفضل المتاجر في بلاد العرب كلها، بسبب الثروات الضخمة التي تأتي من الهند، وأماكن أخرى. ويتعاملون بالمقايضة بصنف من البضائع مقابل صنف آخر، ويعود الهنود على بلدهم محملين بالمال الكثير والزعفران والمرجان والمخمل الحرير والنسيج وقماش التفتا وأدوات الخياطة بأسعار رخيصة ولكن متعددة الأنواع وكميات كبيرة. سكان جدة ينقلون التوابل بواسطة مراكب صغيرة حتى مدينة السويس وإلى مدن أخرى صغيرة تقع في طرف الخليج⁽¹⁵⁾.

المحمديون الذين يأتون من مصر وفلسطين وتركيا والقسطنطينية ومن أماكن أخرى يتركون قوافلهم خارج مدينة السويس أو طور ثم يسافرون للعبادة في المدينة⁽¹⁶⁾ ومكة عبر البحر وينزلون في ميناء جدة. وعندما سألت قال لي بعض المحمديين الذين كانوا برفقتنا أنه في يوم واحد، وهو تاريخ السادس عشر من مارس، يوجد في الريف على بعد ثلاثة فراسخ من هنا أكثر من خمسة وعشرين ألف حاج، يقودهم (بلوشي حفصي) bolush hafsi لكل مائة من خيرة المشاة⁽¹⁷⁾ وعلى رأسهم الحاج الكبير القائد العام لكل المشاة يتبعه عدد من الحرس الخاص، وهم الرماة المعتادون للوالي الأكبر وجميعهم يذهبون أيضاً للعبادة. هذا الشعب المسكين غبي لدرجة أنه يعتبر أنه عندما يزور هذا المكان ويغتسل خمس مرات من إحدى الآبار الموجودة في مدينته مكة لا يوجد أدنى شك بأنهم لن ينالون الخلاص.

بالإضافة إلى ذلك، قبل الدخول إلى ميناء هذه المدينة يُشاهد قلعة جيدة التشييد ومحمية من قبل بعض الحراس المؤجرين من الحجاج. الحاكم التركي يمتلك اليوم هذه المنطقة كلها. حتى عندما كنت في مصر في مدينة القاهرة الكبرى، كان الباشا أيوب يستعرض خمسة وثلاثين ألف رجل سيئي التجهيز، رأيتهم ذاهبون للسفر عبر البحر الأحمر. وقد استولوا بعد ذلك بفترة وجيزة على مملكتي الحديدية والمخاء. ويقابل مدينة جدة على الساحل الإثيوبي رأس في مملكة عدوليس Adele بالقرب من جزيرة صغيرة تدعى بربرا وهي خالية من السكان، وقليل أو نادر ما يصلها الناس من غير الصيادين.

(15) أي البحر الأحمر - (المترجم).

(16) يقصد بها المدينة المنورة - (المترجم).

(17) يقصد بهم ضباط المشاة في جيش السلطان العثماني - (المترجم).

كل هذه الشعوب لصوص كبار وعنيفون ويقودون دائماً حروب ضد الأقباش يسرقون منهم ما يستطيعون لبييعونه إلى سكان بلاد العرب وأقاليم أخرى ما وراء البحر الأحمر. ومن هذه المنطقة يستورد سكان هرمز، وهي جزيرة سأحدث عنها لاحقاً، الذهب والعاج والعبيد الذين يشترونهم من موانئ بربرا وزيلع، وكبدل يعطونهم التمور والعنب والزبيب، ويعطونهم أيضاً الحفن كما تسمى في لغة (الموريسك)⁽¹⁸⁾ moresque وأشياء أخرى صغيرة. لكنني أكتفي بهذا كي ادخل في المضيق وأحدث قليلاً عن أشياء ممتعة وضرورية لوصفي.

(18) الموريسك Moresque صفة مشتقة من كلمة مور More التي كانت تطلق قديماً على سكان شمال غرب أفريقيا الأمازيغ ومنها أطلقت على مسلمي الأندلس والمقصود هنا اللغة العربية- (المترجم)